ايران

مفاخر فنونها

للدكتور زكي حسن

أمين دار الآثار العربية والمدرس بمعهد الآثار الاسلامية

نهضتها الحديثة

في الفن الايراني

للدكتور زكي حسن
أمين دار الآثار العربية والمدرس بمعهد الآثار الاسلامية

توطئة

لسنا نقصد ان نعرض في هذه السطور للفن الايراني بالدرس او الشرح المفصل ، ولكننا في هذه المناسبة السعيدة — التي تجمع بين الامتين اللتين كانت لهما الزعامة في ميدان الفنون الاسلامية — لا يسعنا الا ان نذكر تراث الايرانيين في هذه الفنون ، وان نبين ما كان لطبيعتهم ولاستعدادهم الفطري من اثر في تكييف الفنون الاسلامية ، والسير بها الى العظمة التي بلغتها بين القرنين الثاني عشر والسابع عشر بعد الميلاد

ولا غرو فقد كان لايران منذ العصور القديمة فن ازدهر في عصر الكيانيين ثم الساسانيين من بعدهم . كما ان الاسكندر المقدوني حين اراد ان ينشيء حاضرة تجمع بين الشرق والغرب اتجه بنظره الى ايران ليجعلها مركز هذه العاصمة ، ولكن المنية عاجلته ، فلم يفز بتحقيق مطامعه . على انه نجح الى حد كبير في نشر الثقافة الاغريقية في الشرق الادنى . وكانت ايران وافغانستان ، فترة من الزمن ، ميداناً التقت فيه الاساليب الفنية الايرانية القديمة بالاساليب الفنية الاغريقية . وكان لهذه الفترة أثر ملموس في العلاقة بين الاساليب الفنية الايرانية والبيزنطية بعد ذلك ، بل ان أثرها كان ملموساً في مصر نفسها ، حين كانت تتبع رومة وبيزنطة في العصر الاغريقي الروماني ثم في العصر القبطي ، فكانت بيزنطة تنقل عن ايران الموضوعات الزخرفية ثم تهضمها وتستخدمها في منتجاتها الفنية التي تبعث بها الى الاقاليم التابعة لها على شواطىء البحر الابيض ، فتنقل هذه الاقاليم تلك الموضوعات الزخرفية ، كما يتجلى ذلك في زخارف كثير من قطع المنسوجات التي اكتشفت في صعيد مصر ، وكما يبدو في الرسوم المحفورة على بعض احجار العصر القبطي

ومما يستوقف النظر في تاريخ ايران ان سكانها كان لهم في جميع العصور ولعٌ شديد باتقان منتجاتهم الصناعية، وذوق لطيف في اعداد مساكنهم وحداثقهم وحاجياتهم، ومهارة فائقة في الفنون الجميلة . ولم تكن تنعم حروبهم الطويلة مع الروم في العصر الساساني من العناية بالفنون الجميلة فكانوا يشيدون العائر ويتقنون التحف الخزفية والمعدنية التي تشهد لهم بعلوّ الكعب كما كانوا يخلدون انتصاراتهم على الروم بنقوش محفورة في الصخور كنقش رستم وطاق بستان وغيرهما . وقد كانت هذه النقوش آية في قوّة التعبير عن انتصار الايرانيين وانكسار الروم وذلهم .

ولما امتدّ الاسلام الى ايران لم يلبث هذا القطر العظيم ان نزع العالم الاسلامي في العلم والفنون كما نزعته مصر في الاحداث السياسية . ويمكننا ان نقول في ثقة واطمئنان ان الطراز الايراني في الفنون الاسلامية ولا سيما في الفنون الفرعية منها ، هو أبدع الطرز الاسلامية على الاطلاق . فهو أكثرها تنوعاً ، وأعظمها في حسن الذوق ، ودقة الزخرفة ، وتناسق اللون وجمال النسب . حقًّا ان العائر الاسلامية التي تزدان بها القاهرة من عصور الطولونيين والفاطميين والمماليك ثم عمائر الاندلس وعمائر مراكش ولاسيما في عصر بني مرين ، كل هذه قد تفوق العائر الايرانية دقةً وجمالاً ، ولكننا لا نظن انها تمتاز عنها في الجلال والابهة . بينما منتجات الفنون الفرعية الايرانية من خزف وسجاد وصور ومنسوجات وغير ذلك هي التي لا يتسامى اليها الا النادر من منتجات الامم الاسلامية الاخرى في هذا الميدان

التصوير

فالتصوير الاسلامي مثلاً لا تكاد الزعامة تنعقد فيه لغير الايرانيين ، بل انهم أساتذة الهند والترك في هذا الميدان . وقد قامت في مراكش حركة حديثة على رأسها المصور محمد واسم ومثلها الأعلى هو الرجوع في التصوير الى الاساليب الفارسية

وقد أثبت علماء الآثار الاسلامية في العصر الحديث ان ازدهار التصوير الاسلامي في ايران دون غيرها من الاقطار الاسلامية ، ثم انتشاره منها الى تلك الاقطار على يد فنانين ايرانيين أو على يد تلامذة لفنانين من ايران ، كل هذا راجع الى طبيعة الايرانيين أنفسهم ، والى التقاليد الفنية التي كانت لهم قبل الاسلام ، والى المهارة التي اكتسبوها في هذا الميدان فجعلتهم يتسامحون في شأن النحت والتصوير ولا يتأثر الفنانون منهم بكره هذين الفنين في الاسلام ، ذلك الكره الذي ثبت في الامم الاسلامية السامية الاصل ، والذي كان سبباً في انصراف المسلمين عن تصوير المخلوقات الحية واقبالهم على الزخارف الهندسية والنباتية

ومهما يكن من شيء فقد ارتقت صناعة التصوير في ايران وكان ميدانها في أول الامر توضيح

كتب التاريخ والقصص ودواوين الشعر بالصور الصغيرة ذات الالوان الزاهية الجميلة ، شرحاً لمحتوياتها ، او زينة لها . وقد امتازت الصور الثلاثة الكبرى في تاريخ ايران بثلاث مدارس كبرى في التصوير فاشتهر الطراز او المدرسة المغولية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، واشتهرت المدرسة التيمورية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، واشتهرت المدرسة الصفوية في القرنين السادس عشر والسابع عشر . واما بعد منتصف القرن السادس عشر فقد تأثر المصورون الايرانيون ببعض الاساليب الفنية الغربية في التصوير ولا سيما بعد ان أرسل الشاه عباس الثاني (١٦٤٢— ١٦٦٦) بعض البعثات العلمية لتلقي العلم والفن في ايطاليا وبعض البلدان الاوربية الاخرى

وتمتاز الصور الايرانية الاسلامية بألوانها الجميلة الذي يتغلب فيها الازرق والذهبي والاخضر والبنفسجي والاحمر ، كما تتميز ببعض اساليب اصطلاحية اتبعها المصورون ، كاهمال الظل وكرسم الاشخاص في أوضاع معينة بغير الاهتمام بقوانين المنظور او بصدق تقليد الطبيعة . وليس في ذلك ما يؤخذ على الصور الفارسية ، لانه جزء من طبيعتها ، ولانها حين تقلد الصور الغربية تفقد ذاتيتها ويزول عنها جمالها وسحرها . فضلاً عن ان الفنانين المصريين القدماء والكلدانيين والاشوريين والفنود كانت لهم في ميادين الفن المختلفة أساليب اصطلاحية تميز فنونهم الوطنية . ويعرف المتصلون بالحركات الفنية في العصور الحديثة ان كثيرين من رجال الفن يعملون على التحرر من تقاليد الفن الاغريقي في صدق تمثيل الطبيعة ، ويريدون ان ينسجوا على منوال غيره من الفنون في عدم التقيد بالطبيعة . ولا ريب في ان كثيرين من المصورين الغربيين في العصر الحديث يرجعون الى الشرق ولا سيما ايران — فيستلهمونه كثيراً من الموضوعات الزخرفية ويستمدون منه بعض الاساليب الفنية

وعلى كل حال فان أعاظم المصورين في الاسلام كانوا من الايرانيين او من المتأثرين في الهند وتركيا — وحسبنا ان نشير هنا الى بهزاد وسلطان محمد وقاسم علي وميرك ومحمدي ومعين مصور وجمال قاش اصفهاني ورضا عباسي وغيرهم ممن تحدثنا عنهم في كتابنا عن التصوير في الاسلام عند الفرس او ممن نرجو ان نعرض لهم في بحث قريب . وكانت منتجات هؤلاء الفنانين مختلفة النواحي ، ففي بعضها مناظر صيد او قتال عجيبة باسلوبها الفني وما فيها من روح وحركة ، على ان بعضها صور افراد مشهورين تظهر فيها دقة لم يكن يستطيع الوصول اليها في ذلك الوقت الا مهرة المصورين في الشرق الاقصى . وفي كثير من الصور الايرانية دعابة ومجون وطرب غير ما نراه في تصوير حوادث الشاهنامة من قتال ومناظر شجاعة واقدام

وقد قام التصوير الاسلامي في الهند وفي تركيا على اكتاف الايرانيين في بدء الامر ولكنه اتخذ في الهند طريقاً آخر متأثراً بالاساليب الفنية الوطنية في الهند نفسها ، حتى اصبح

البون شاسعاً يفطن اليه كل من له المام بسيط بالفنون الاسلامية . وقد ذاع صيت المصورين الايرانيين حتى كان السلاطين من العثمانيين ومن الهنود المغول يستدعونهم للعمل في بلاطهم وكان صغار المصورين في ايران والهند يكتبون على منتجاتهم اسماء مشهوري المصورين ، وذلك طمعاً في بيعها بأغلى الاثمان ، حتى ان بعض مصوري الهند نسبوا منتجاتهم الى بهزاد كبير مصوري الفرس على الاطلاق اوالى مانى زعيم المانوية ، وقد عاش في القرن الثالث الميلادي واشتهر واتباعه بالمهارة في التصوير وباستخدام الصور في شرح عقائدهم الدينية وقد تسمى باسمه مصور صغير في بلاط الشاه عباس . وفي دار الكتب المصرية وفي المكتبة الاهلية بباريس مجموعتان من الصور الهندية في اولاهما صور منسوبة الى بهزاد وماني وفي الثانية صور منسوبة الى بهزاد ولكن امثال هذه النسبة المفرضة سهل كشفه لمن لهم قسط بسيط من الدراية بتاريخ الفنون

السجاد

على ان اكثر منتجات الفن الايراني انتشاراً في العالم انما هو السجاد . والظاهر ان شهرة ايران في هذا الميدان ترجع الى العصور القديمة فقد كانت تصدر السجاد الى الاغريق ثم الى البزنطيين والغربيين في العصور الوسطى . ولعل السبب في ازدهار هذه الصناعة في ايران هو تشجيع الملوك والامراء ورجالات الدولة وانفاقهم الاموال الطائلة في انتاج احسن الفرش والابسطة وأفخرها مادة وحسن صناعة على يد كثيرين من العمال ، يشتغلون الشهور الطويلة في صنع سجاجيد تخرج آية في الفن ، لا يدري المرء بأي شيء يعجب فيها أبعظمة الالوان والسجاها ، ام بجمال الزخارف ودقتها ام بمتانة الصناعة واتقانها . بل ان الملوك والامراء كثيراً ما كانوا يطلبون الى مشهوري المصورين والرسامين ان يقوموا باعداد الرسوم التي تزين بها السجاجيد الفاخرة . وفي الحق ان المصورين كان لهم في البلاط وفي الحياة الاجتماعية الايرانية نفوذ كبير بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر، فلم يكونوا يقومون بتصوير المخطوطات فحسب بل كانوا يشرفون على شتى انواع الزخرفة : في العمائر ، وعلى المنتجات الخزفية ، والمنسوجات والسجاد واكبر الظن ان أهم من اشتغل من المصورين بعمل زخارف السجاد هم بهزاد وسلطان محمد وسيد علي . وقد وصل الينا أسماء بعض من قاموا على نسج السجاجيد المشهورة ومن أهمهم غياث الدين جامي ومقصود النقاش في النصف الاول من القرن الخامس عشر ومحمد أمين الكرماني ولمعت الله جوشقاني . واسماؤهم موجودة على سجاجيد محفوظة الآن في متحف بيلاس ومتحف فكتوريا والبرت بلندن وفي ضريح الشاه عباس الثاني بمدينة قم

أما اهم المدن التي اشتهرت بصناعة السجاد في إيران فهي اصفهان وكرمان وقشان وقم وتبريز وكرباغ وهمدان وشتر وهراة (في افغانستان) وطوس ويزد

صورة ضرب وحصار قلعة من رسم المصور الإيراني محمد قاسم في بداية القرن السابع عشر

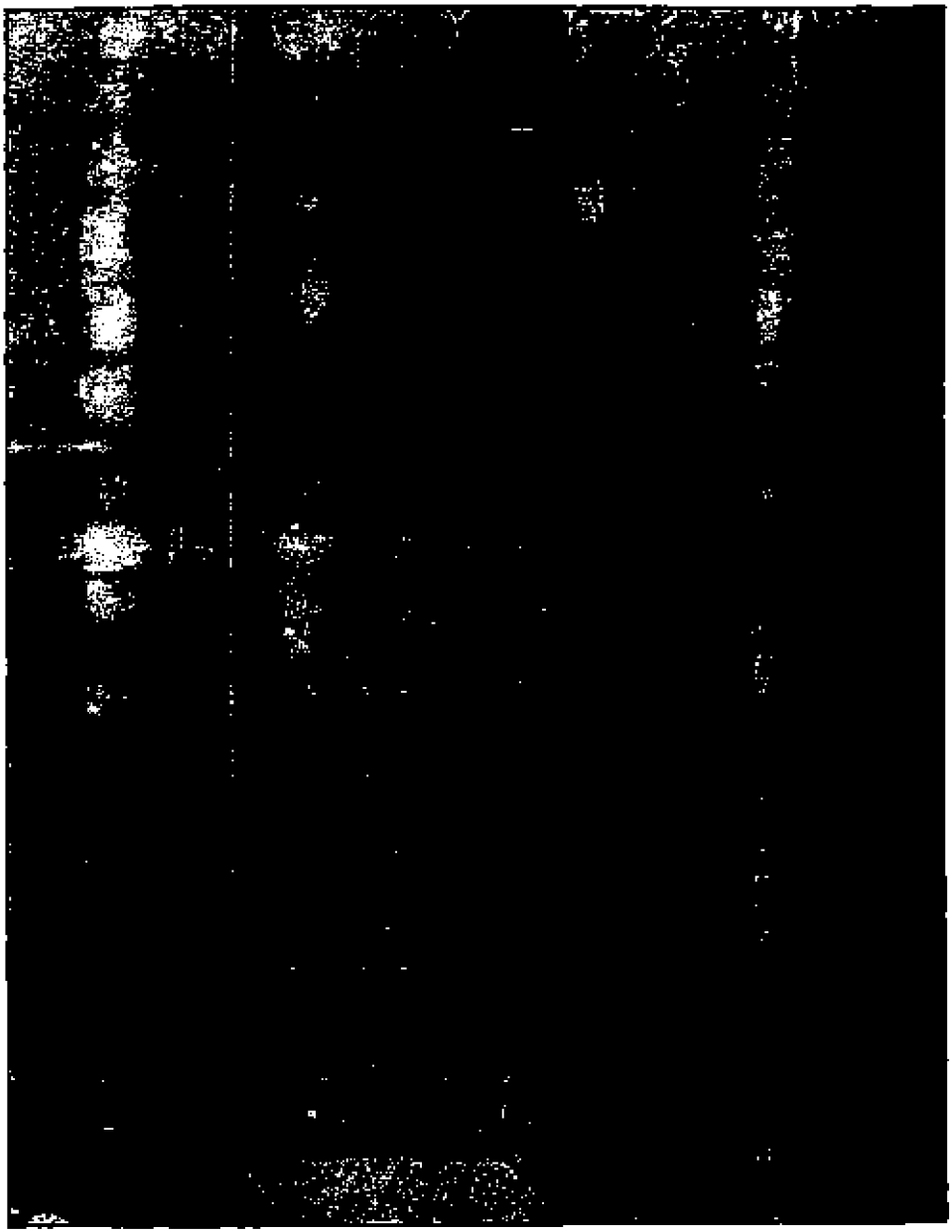

نموذج من الخط الفارسي والصحائف المذهبة في المخطوطات الإيرانية

ويرجع فخار السجاد الايراني وشهرته الى ابداع ألوانه وتناسقها وحسن توزيعها ، والى مقدار الصناعة والعناية بالصوف (حتى لقد كانت الغنم تربى خصيصاً ويعنى بنظافة صوفها لينسج منه السجاد) ، كما ان الحرير وخيوط الذهب والفضة كانت تدخل في صناعة السجاجيد المشهورة . ولا ننسى ان حجم السجادة كان يظهر ابداع الزخارف فيها ويساعد المصور او الرسام على اظهار مهارته

والسجاد الايراني على أنواع مختلفة ، ولكن أكثره يمثل غرام الايرانيين بالحدائق ، حتى نرى ان أهم انواعه يشبه الحديقة بما فيه من أزهار ونباتات . وقد كانت هناك أبسطة وسجاجيد تمثل زخارفها مناظر الصيد ، او القتال بين الحيوانات المختلفة ، غير ان ذلك كله كان على أرضية مملوءة بالازهار والنباتات ، ولكنها ازهار ونباتات لم تكن دائماً تقليداً صادقاً للطبيعة ، بل كانت كما غلب عناصر الزخرفة النباتية في الفنون الاسلامية — مهذبة بعض الشيء . فالمعروف ان المسلمين لم يصوروا النبات او الانسان او الحيوان تصويراً صادقاً ، بل كانوا يتخذونها موضوعات زخرفية ، يكيفونها كيف شاءوا مراعين فيها التناظر والبساطة والانسجام ومن ثم فقد كان يسودها في بعض الاحيان شيء من الجمود . ولعل الايرانيين هم اقل الامم الاسلامية اندفاعاً في هذا التيار ، فامتاز الطراز الايراني في الفنون الاسلامية بالزخارف النباتية ولاسيما الازهار وبالاسراف في رسوم الانسان والحيوان والصور على المنتجات الفنية المختلفة ، وعني الايرانيون اكثر من سائر الامم الاسلامية بصدق تمثيل الطبيعة حتى الآن فيما كانت لهم فيه اصطلاحات واساليب موضوعة . وقد كان اتصالهم بفنون الشرق الاقصى منذ العصر المغولي دافعاً لهم على الدقة في رسم النباتات والازهار

ولا يجب ان ننسى ان صناعة السجاد في ايران لم تكن زاهرة بايران في العصر الصفوي فحسب ، بل اننا نجده في كتب التاريخ من وصف بساط كسرى الذي غنمه العرب في المدائن لا كدليل على براعة الايرانيين في هذه الصناعة الجميلة منذ العصور القديمة . ومن المحتمل ان يكون اهل الحيرة قد نقلوا عنهم اسرار هذه الصناعة ، فالمعروف انه سجاجيد ذات زخارف حيوانية كانت تصنع في الحيرة قبيل الاسلام

وقد اختلف رجال الفن في تقسيم السجاجيد الايرانية فبعضهم يقسمها باعتبار زخارفها الى سجاجيد ذات زخارف شجرية ، واخرى ذات زخارف تمثل مناظر الصيد والقتال ، وثالثة ذات زخارف من آنية وشكاوت وازهار بينما يجتهد باحثون آخرون في تقسيمها تبعاً للبلاد الايرانية المصنوعة فيها ، ولكن الوصول الى هذا التقسيم الاخير ليس سهلاً ميسوراً ، لان المعلومات الصحيحة بهذا الشأن نادرة جداً ، فضلاً عن ان المصانع في البلاد الايرانية المختلفة كانت تقلد أي طراز ينال رواجاً كبيراً ولو كان موطنه في بلد آخر

وقصارى القول انه من الممكن تقسيم السجاجيد الايرانية الى انواع مختلفة بحسب زخارفها كما يمكن نسبة بعض هذه الانواع الى مصانع بعض المدن الايرانية المعروفة ، ولكن بعض المدن الاخرى لا يمكن ان تنسب اليها انواع بالذات ، كما ان بعض الانواع لا نستطيع نسبتها الى اي مدينة بالذات

المنسوجات

اما المنسوجات الايرانية فقد ذاعت شهرتها منذ عصر هيرودوتوس . وكان اهل روما يدفعون فيها الاثمان الباهظة ، ثم أقبل اهل بزنطة على تقليدها . وبلغت صناعة النسج أوج عزها في العصر الساساني . وقد وصلت الينا بعض قطع من المنسوجات الحريرية الساسانية . والزخارف مكونة في اكثر هذه القطع من مجموعات دوائر او اشكال هندسية اخرى ، فيها رسوم حيوانات او طيور او فرسان في الصيد ، متقابلة او متدابرة ، في ترتيب هندسي جميل ، كما ان بين الحيوانات المتقابلة رسماً تخطيطياً هذا يمثل شجرة . والمعروف ان الصينيين كانوا يحبون هذه المنسوجات الحريرية الساسانية ، وان حكام الاقاليم الصينية الواقعة بين الصين وايران كانوا يقدمون من هذه المنسوجات جزية الى ملوك الصين . والحق ان الايرانيين في ذلك العصر الجيد وفقوا في الوان منسوجاتهم حد التوفيق فكان انسجام هذه الالوان وهدوءها يبرزان عظمة الزخارف ويكسبان القطعة سحراً وجمالاً

ولما انتشر الاسلام في ايران ، وانقضى دور الزهد والتقشف الذي ساد العالم الاسلامي في اثنائه ، واختلط العرب بغيرهم من الامم العريقة في المدنية تقدمت الصناعات والفنون . ولقيت صناعة النسج تشجيعاً خاصاً في الاقاليم الاسلامية المختلفة ، لما سنه الخلفاء والامراء في مكافأة رجالات الدولة بالخلع الثمينة من نفيس المنسوجات الحريرية . على ان القطع الايرانية التي وصلت الينا من صدر الاسلام نادرة جداً ، ولعل السر في ذلك هو غزو الغوز الذي قضى على الحرث والنسل . ومهما يكن من شيء فقد ظل الايرانيون نحو ثلاثة قرون في صدر الاسلام يتبعون الاساليب الساسانية في زخارف منسوجاتهم ثم كان القرن العاشر فطغت عليها الاساليب الاسلامية في زخرفة المنسوجات بأشرطة من رسوم الحيوانات او بزخارف خطية ونباتية . وكان الايرانيون فضلاً عن ذلك يستوردون من الشرق الاقصى الاقمشة الحريرية المزينة بالزهور والنباتات الدقيقة ، فكانت مدينة مرو تصدرها الى سائر الاقاليم الايرانية فيعمل الصناع على تقليدها في كثير من الاحيان . ومن أهم المدن الايرانية التي اشتهرت بمصانع النسج في العصر الاسلامي نيشابور وتبريز وسلطانية وهراة ويزد وشيراز وكرمان . ومن أبدع ما كانت تخرجه المصانع الايرانية الرايات والاعلام تزينها العبارات بالخط الكوفي الجميل . ثم كان عصر

السلاجقة في القرن الثاني عشر الميلادي عصر نهضة شاملة ورقي تام في صناعة النسج ، فتقدمت أساليب الصناعة ، وعمد النساجون الى الزخارف الساسانية القديمة يستمدون منها موضوعاتهم الزخرفية بعد ان يدخلوا فيها ما يناسب العصر وما يتفق وتأثرهم بدقة الصينيين في رسم النباتات والطيور والحيوانات . وقد عثر المنقبون في قبور مدينة الري على قطع من منسوجات هذا العصر تشهد ببراعة النساجين الايرانيين

وزاد تأثر المصانع الايرانية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بالاساليب الصينية في زخرفة المنسوجات بسبب ازدياد الوارد من الاقمشة الصينية واتساع تجارة ايران مع الشرق الاقصى وغزوات المغول في ايران

***

أما في نهاية القرن الخامس عشر وفي القرن السادس عشر فقد كانت زخارف المنسوجات متأثرة كل التأثر بصور المخطوطات في ذلك العصر فكثيراً ما نرى عليها صور مجنون ليلى وصور بعض حوادث الشاهنامة او بعض الاساطير المشهورة في التاريخ الايراني وفي مؤلفات الشعراء والادباء الايرانيين . وكان لمدينتي هراة وتبريز قصب السبق في انتاج الديباج الذي زينهُ هذه الزخارف . وهناك بضع قطع من هذا الديباج عليها امضاء صانعها « غياث » وهي محفوظة في ليون وباريس ولندن وفلورنسة

على ان أبدع ما أنتجهُ النساجون الايرانيون هي القطيفة (المخمل) التي امتازت بهدوء ألوانها ورقتها المتناهية . وأهم المدن التي ذاع صيتها في نسج القطيفة هي قاشان

وزادت ثروة ايران في عصر الشاه عباس وزاد الاقبال على المنسوجات الفاخرة ، فزادت المنتجات زيادة أثرت قليلاً على جودة النوع وجمال الزخرفة ، اللهمَّ الا فيما كان يصنع لبلاط ورجالات الدولة . وكان أهم أنواع الزخارف في ذلك العصر رسوم أشخاص ذوي قدود هيفاء وأوضاع فيها كثير من التكلف وفتيات او فتيان يكاد المرء يحسبهنَّ نساء . ونحو ذلك من طراز المصور رضا عباسي . والواقع ان تأثير هذا المصور وذيوع صوره فتياته وفتيانه لم يكن في المخطوطات المصورة والمنسوجات فحسب ، بل كان في صور الجدران وفي زخرف القاشاني

ثم عاد الايرانيون الى انواع رسوم الازهار والنباتات فتخذوها لزخرفة عدد كبير من منسوجات القرنين السابع عشر والثامن عشر ووفقوا فيها توفيقاً كبيراً وساعدهم على ذلك تجار البضائع الصينية الذين كانوا يزورون مدينة أردبيل والحرفيون الصينيون الذين كانوا يزاولون شتى الفنون الايرانية

ولا يتسع المقام هنا لتفصيل بعض الانواع الجديدة من المنسوجات الايرانية في القرنين السابع عشر والثامن عشر فحسبنا أن نشير الى منتجات أصفهان وكرمان وقزوين وشيراز ورشت

الخزف

وثمة ميدان آخر من ميادين الفنون الاسلامية كان للايرانيين فيه قدم السبق . ذلك هو الخزف . ولا غرو فقد توافرت في ارض ايران عجينة تصلح لصنع الاواني الخزفية ويسهل تشكيلها وتمتاز برقتها وخفة وزنها . وان صح لدى بعض الخبراء ان بلاد الاغريق من ناحية وبلاد الشرق الاقصى من ناحية اخرى قد بلغت في صناعة الخزف درجة من التقدم تفوقت بها على ايران فان بعض الخواة الآخرين يرون في خزف تلك البلاد جوداً ودقة وتقناً لا يرونهُ في الخزف الايراني

ومهما يكن من شيء فقد امتاز الخزف الايراني في العصر الاسلامي بجمال الاشكال وتناسق النسب ، وبريق الطبقة الزجاجية المغطية ، وابداع الزخرف وتنوعها . وليس هذا بمستغرب فقد كان لايران تقاليد قديمة في هذه الصناعة منذ عصر قبل التاريخ كما يبدو من القطع الخزفية التي كشفت في نهاوند والتي تزينها زخارف هندسية جميلة . ثم كان عصر الكيانيين وصارت الجدران المصنوعة من الآجر تغطى — كما في تصور مدينة السوس — بطبقة من الميناء ، وتنبيء عن الخزف الذي قُدِّر لجدران القاعات الايرانية ان تكسى به في العصر الاسلامي . ثم جاء العصر الساساني الذي ازدهرت فيه صناعة الخزف كما ازدهرت الفنون الاخرى . ولما انتشر الاسلام في ايران ظل الخزفيون يتطورون شيئاً فشيئاً حتى تركوا الاساليب الفنية الساسانية ، وطبعت منتجاتهم بطابع يجمع بين العناصر الزخرفية الاسلامية وبين ما ورثوه من أساليب ايرانية

وأقدم أنواع الخزف الايراني في العصر الاسلامي هو النوع الذي يعرف باسم « جابري » وهو اسم عبدة الشمس في ايران ، ويظن انهُ من صناعتهم قبل أن ينتشر في كل انحائها الدين الاسلامي بعد الفتح العربي بضعة قرون . والزخارف في هذا الضرب من الخزف تتألف من الخطوط المنحنية من رسوم فرسان في الصيد وطيور او حيوانات غير دقيقة الرسم ، ولكنها محفورة حفراً عميقاً في الطبقة البيضاء الرقيقة التي تكسو السطح بحيث يصل هذا الحفر الى العجينة الحمراء المصنوع منها الاناء . وتعلو العجينة الحمراء والطبقة البيضاء التي تغطيها مادة زجاجية شفافة ذات لون أصفر او اخضر او اسمر قاتم

على ان بعض القطع الخزفية من هذا النوع قد وجد عليها كتابات بحروف كوفية تجعل من السهل نسبتها الى القرنين العاشر او الحادي عشر . فمن المحتمل ان يكون خزف « جابري » من منتجات ايران في الاربعة القرون الاولى بعد الاسلام ، ولا شبهة في زنجان وقاشان والري . ولكن هذه المدينة الاخيرة التي دمرها المغول سنة ١٢٢٠ ميلادية كانت مركزاً عظيماً لصناعة شتى انواع الخزف حتى اذا نسب اليها نماذج من صناعات خزفية لم توجد الا في اطلالها . ومن

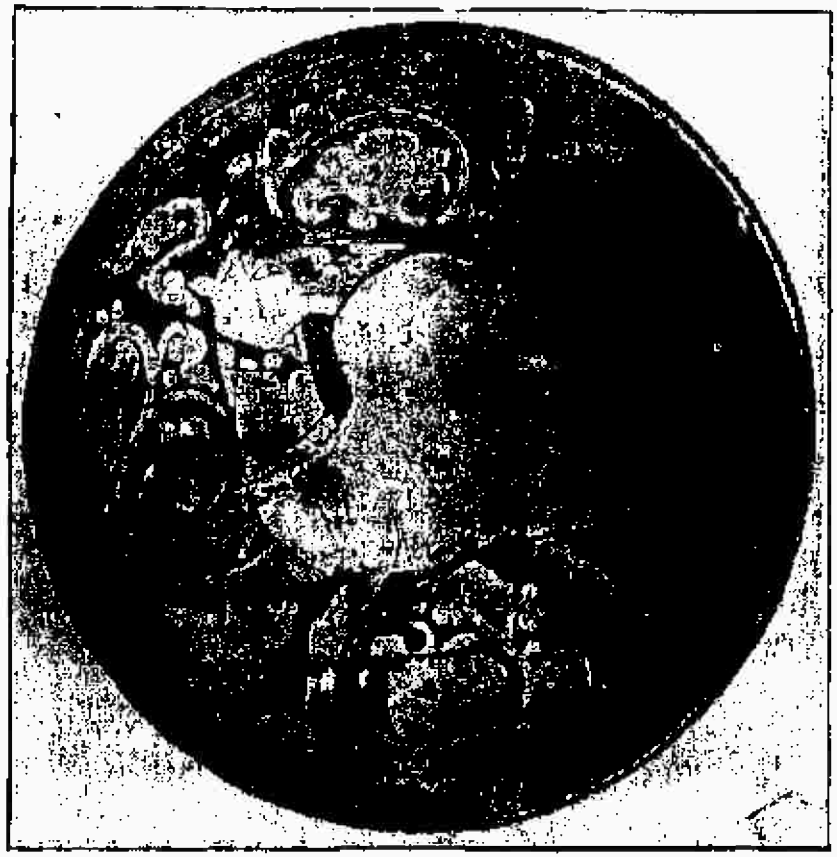

صورة صحن من الخزف الايراني المعروف باسم « خزف جاري » ترجع الى القرن الحادي عشر الميلادي ومحفوظة الآن بدار الآثار العربية

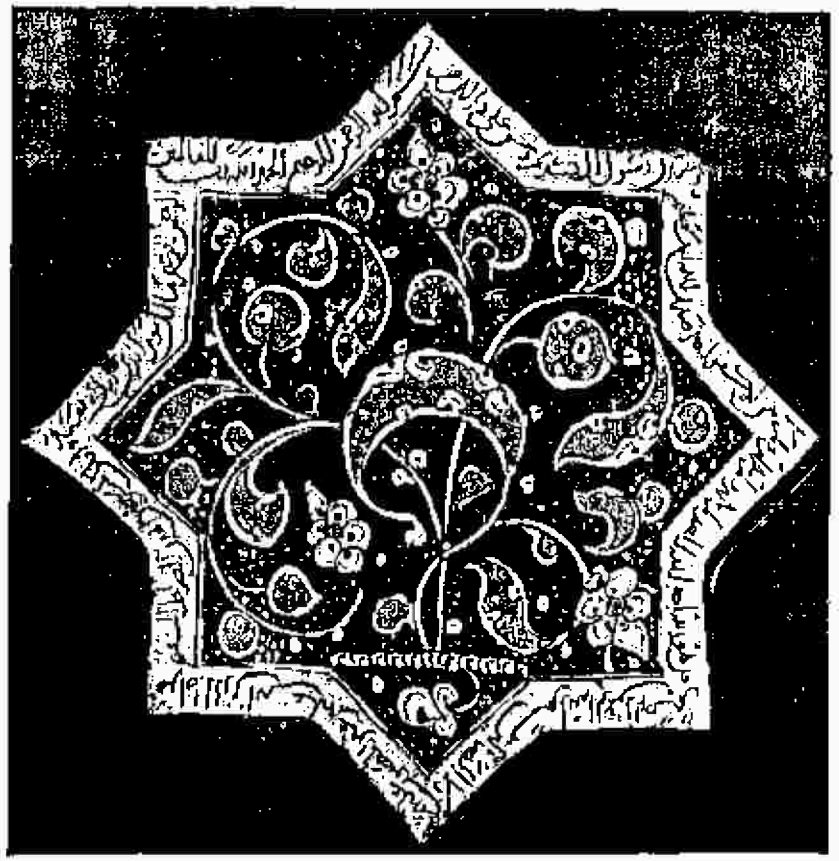

نجمة من القاشاني ذي البريق المعدني . وهي من صناعة قيرامين بايران في سنة ١٢٦٢ ميلادية ومحفوظة الآن بمتحف برلين

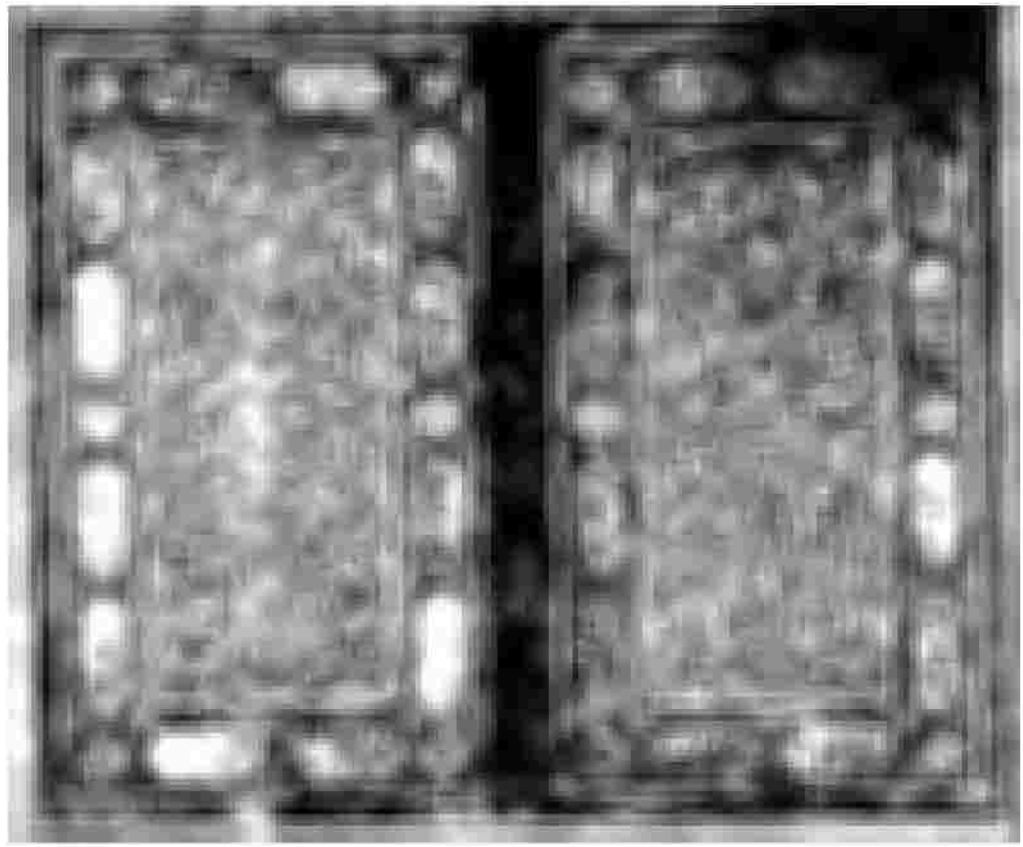

جلد كتاب إيراني من القرن السادس عشر من مقتنيات دار الآثار العربية

هذه النماذج بعض الاواني والاطباق ذات الصور الآدمية والصناعة الدقيقة التي ترجع الى القرنين الحادي عشر والثاني عشر وقد نجد في بعض هذه القطع صور البراق او صور بط واوز وطيور اخرى

ومما زاد الخزف الايراني جمالاً ذلك التجديد الذي وصل اليه المسلمون في هذه الصناعة وهو البريق المعدني lustre ، فكانوا يرسمون الزخارف على سطح لامع ثم يثبتونها بتعريضها للنار بطريق تكسبها بريقاً معدنياً يختلف لونه بين الاحمر النحاسي والاصفر الضارب الى الخضرة . ويظن بعض علماء الآثار ان هذه الصناعة نشأت في ايران كما يظن آخرون انها بدأت في العراق ويذهب فريق ثالث الى ان مهدها ارض مصر . ولكنها كانت على كل حال خير مخرج للمسلمين من صعوبة الانصراف عن الاواني الذهبية والفضية التي يكرهها رجال الدين لما تدل عليه من ترف واسراف

وكانت هذه الاواني الخزفية ذات البريق المعدني تصنع في كثير من المدن الايرانية ولا سيما في الري وتزينها زخارف متعددة الالوان تمثل بهرام جور وحبيبته في الصيد ، او تمثل السلطان جالساً على عرشه وحوله رجال ونساء من اتباعه ، او تمثل فرساناً في الصيد ، وما الى ذلك مما اعتدنا رؤيته على التحف الايرانية الاخرى ومما كان يزيده التذهيب في الخزف روعة وجمالاً

***

على ان صناعة الخزف ذي البريق المعدني استخدمت على يد الايرانيين في صناعة النجوم والتربعات التي كانت تكسى بها الجدران ، والتي اصبحت ظاهرة من الظواهر المعمارية في ايران ثم في تركيا وسورية

وبعد ان دمر المغول مدينة الري اصبحت سلطانباد مركز صناعة الخزف . وصارت تنتج في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ما كانت تنتجه الري قبلها ، كما احدثت انواعاً جديدة

ولكن صناعة الخزف لم تكن زاهرة في مدينتي الري وسلطانباد فحسب ، بل ان مدناً اخرى ، كاصفهان وتبريز وهمدان وفيروزكوه ومشهد ، كانت لها مكانتها في هذا الميدان . كما ان سلطانباد كانت تنتج في القرن الخامس عشر خزفاً طريفاً تغلب على زخارفه الفروع النباتية (الاراباسك) ورسوم زهور اللوتس . وثمة نوع ينسب الى قرية كوباتشه بداغستان ولكن يظن انه كان يصنع على مقربة من تبريز

التحف المعدنية

اما صناعة التحف المعدنية في ايران فقد تناولها الايرانيون قبل الاسلام . والواقع ان الاواني المعدنية الساسانية عليها سمة من القوة والعظمة ، قلّ ان توافرت في تحف معدنية اخرى . ويشهد بذلك ما وصل الينا من الصواني والاطباق الذهبية والفضية ذات الزخارف البارزة ، وما يحتفظ به متحف الهرميتاج بالروسيا والقسم الاسلامي بمتاحف برلين من اباريق

برونزية جميلة ، يظن انها ترجع الى القرن السابع او الثامن بعد الميلاد ، ويغلب على زخارفها رسوم الحيوانات والطيور ومناظر الصيد كما ان بعض التحف والهواة يحتفظون بتحف معدنية على شكل حيوان او طائر ، ويرجع بعضها الى صدر العصر الاسلامي ، كما يظن ان قطعاً منها ترجع الى العصر الساساني نفسه . ولعل اشهر هذه المجموعة بطة في متحف الهرميتاج بالروسيا وبناء في مجموعة المدجودجيان

على ان دار الآثار العربية في القاهرة تحتفظ بين مقتنياتها بابريق بديع من البرونز يمت للفن الساساني بأوثق الصلات ، وان كان المرجح انهُ من صناعة القرن السابع او الثامن الميلادي . وقد عثر على هذا الابريق في ابي صير المقلق حيث قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية ، فحمل ذلك بعض العلماء على القول بان مثل هذا الابريق الثمين لا بد ان كان ملكاً لهذا الخليفة وعلى كل حال فان الابريق بديع الشكل ، وجميل بزخارفه المحفورة والمخرمة

وثمة تحف برونزية كثيرة يرجح انها من صناعة ايران في القرنين الحادي عشر والثاني عشر وعلى بعضها زخارف فيها رسوم آدمية . ومن هذه التحف مرايا ذات زخارف بارزة من رسوم مماثلة ، وتقوم على أرضية من فروع نباتية جميلة

أما في عصر السلاجقة فقد كان للتحف الفنية القوة والجلال اللذين امتازت بهما الصناعة الساسانية ، واللذين كانا يناسبان طبيعة السلاجقة أنفسهم ، كما كان لها في بعض النواحي الاخرى دقة وظرف يناسبان اعتناقهم الاسلام وغرامهم الجديد بالادب والفن الايرانيين . فلا غرابة اذا وجدنا في هذا العصر تحفاً برونزية ساسانية الطراز والى جانبها بعض الاواني والتحف من الذهب والفضة ، ذات زخارف دقيقة مفرغة في الاناء . وفي مجموعة المسيو رالف هرارى بك عدد من هذه الاواني والتحف ، فيها كؤوس وأباريق و باخر وعلب ومدلقة ، وعليها زخارف من طيور وحيوانات حقيقية و خرافية محفورة او مفرغة او بارزة

وفي القرن الثاني عشر الميلادي لم يقف بعض الصناع عند حفر الزخارف على التحف بل بدأوا في تكفيتها (تزيلوها) بالمعادن النفيسة ، ولا يزال أبدع مثال لهذه الصناعة اناء من مجموعة بوبرنسكي في متحف الهرميتاج ، صنع سنة ١١٦٣ ميلادية في مدينة هراة ، التي اشتهرت بصناعة التحف المعدنية كما اشتهرت بها أيضاً اصفهان وهمذان وشيراز

ومن المرجح ان طراز مدينة الموصل في صناعة التحف المعدنية قد نقل بعض أساليب هذه الصناعة عن ايران . بل الواقع ان الفرق بين الطراز الايراني والطراز الموصلي لا يزال غير واضح كل الوضوح . حقاً اننا لا نعرف تحفاً معدنية يمكن نسبتها على وجه التحقيق الى ايران وتكون في الوقت نفسه من الابداع ودقة الصناعة بحيث يمكن مقارنتها بالاواني العديدة التي

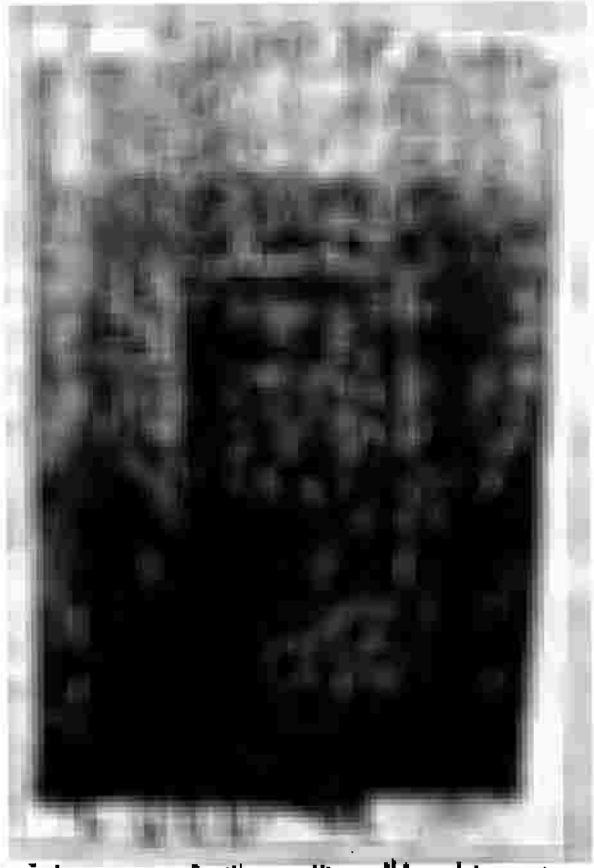

سجادة من الحرير المخيش بالذهب والفضة وهي من صناعة اصفهان في القرن السادس عشر . وقد وهبها حضرة صاحب السمو الامير يوسف كمال الى دار الآثار العربية

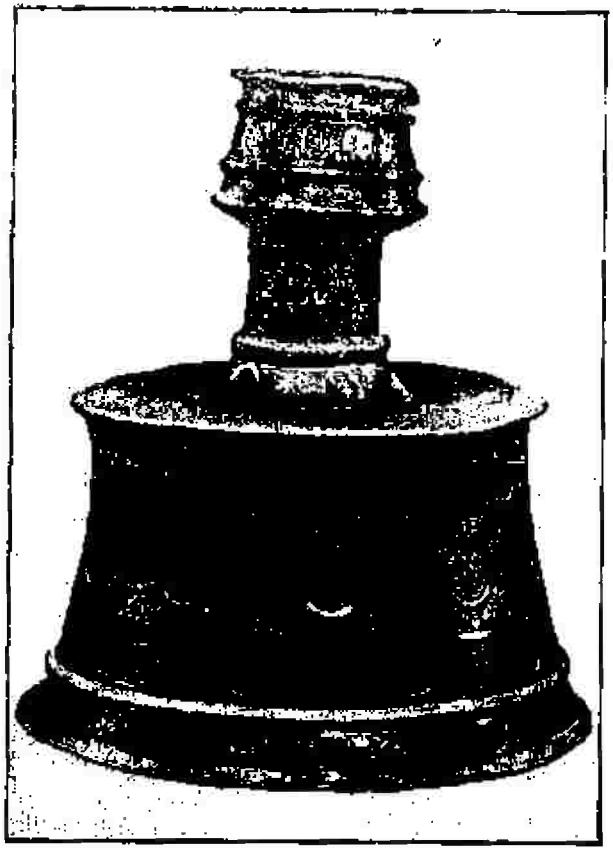

شمعدان من النحاس في مجموعة السمو دالف هراوي بك . وهو منزل (مكفت) بالذهب والفضة ، وعليه اسم صانعه محمد بن رفيع الدين شيرازي وتاريخ صناعته سنة ٧٦١ هـ (١٣٦٠ ميلادية)

صورة إبريق من النحاس ، صنع في إيران سنة ٧٦٣ هـ
(١٢٧٤ ميلادية)

صورة قطع من منسوجات حريرية إيرانية ترجع الى القرن السادس عشر ،
ومحفوظة الآن بدار الآثار العربية

صنعت في الموصل ، وعليها أمضاء صانعيها ، ولكن أسماء بعض هؤلاء الصناع تظهر عليها مسحة ايرانية حتى اننا لنتساءل اذا لم يكن هؤلاء الصناع ايرانيين هاجروا من ايران الى بلاد الجزيرة وأتيح لهم ان ينتجوا فيها أبدع التحف المعدنية في الفن الاسلامي

ومهما يكن من شيء فان صناعة التحف المعدنية تقدمت في ايران نفسها ، كما تقدمت في مدرسة الموصل . وكان من اهم مظاهر التطور في الصناعة الايرانية الاناقة والتهذيب في اشكال الاواني وبعض التغيير اللطيف في الزخارف . ثم بلغ هذا التطور اقصاه في عصر الاسرة الصفوية في بداية القرن السادس عشر ، وصارت زينة التحف المعدنية في تكفيتها بزخارف من خطوط او كتابات على ارضية ذات موضوعات زخرفية قوامها فروع نباتية دقيقة

***

ولا يفوتنا ان نذكر ان ايران كانت من اهم اقطار العالم الاسلامي في صناعة نصال السيوف من الصلب والحديد . وكانت هذه النصال تكفت (تنزّل) بالذهب والفضة في بعض الاقاليم الشرقية من ايران . ولا غرو فان أهل ايران كانوا منذ العصر القديم مغرمين بالاسلحة . على ان ما وصل الينا من الاسلحة الايرانية ليس اقدم من القرن السادس عشر . وربما كانت الاسلحة المرسومة في الصور الفارسية من القرنين الثالث عشر والرابع عشر اكثر عون لنا على دراسة انواعها قبل العصر الصفوي . اما اهم ما نعرفه من اسلحة الصفويين فخوذة باسم السلطان طهماسب في متاحف استامبول وعليها امضاء صانعها : « ابراهيم بن محمد رضا » . وفي المتحف البريطاني خوذات من عصر الشاه عباس ، وعليها كتابات منزلة بالذهب وزخارف نباتية جميلة . ومن مشهوري صناع الاسلحة في عصر الشاه عباس (١٥٨٧—١٦١٩) أسد الله الاصفهاني

***

أما صناعة الزجاج فقديمة في ايران وقد وصل الينا طبق زجاجي من العصر الساساني وعليه صورة طائر مخرافي كما وجد في مدينة الري تحف زجاجية ترجع الى القرنين العاشر والحادي عشر . ثم ازدهرت صناعة الزجاج في القرون التالية ولاسيما في شيراز وهمدان ونيشابور وسمرقند

وقد كان الحلي والجواهر شأن عظيم في الحياة الاجتماعية الايرانية ولا سيما في البلاط ، وفي ملابس الطبقات العالية فلا عجب ان تخصص في صناعتها مهرة الفنانين في زنجان واصفهان وتبريز وسلطانية وغيرها من البلدان الصناعية في ايران

تأثير الفن الايراني وانتشاره

ولا يسعنا ان نختم هذه الكلمة عن الفن الايراني بدون ان نشير الى ما كان له من عظيم التأثير على غيره من الفنون الاخرى . والواقع اننا — اذا استثنينا الفن الاغريقي — لا نكاد نجد

فثمّا آخر قدّر له ان ينعم بمثل نفوذ الفن الايراني وانتشاره. ففي العصور القديمة كانت الاساليب الفنية الايرانية من أظهر الاساليب الفنية في الشرق الادنى . ويظن كثيرون من العلماء ان اتصال الفن الايراني بالصين يرجع الى العصر الكياني ، حين بدأت الاساليب الفنية في الصين وايران تلتقي في اواسط آسيا وتزحف كل منها الى البلد الآخر . ثم كانت غزوات الفرس في وادي النيل اكبر تعريف لاهل مصر القدماء بهذا الشعب الايراني وبأساليبه الفنية المختلفة التي كان لها بعض التأثير في العمارة وفي زخارف المنسوجات المصرية . كما بدأ اتصال ايران بروما منذ القرن الثالث الميلادي ، حين انتشرت تجارة الحرير مع الصين — واتصلت ايران بعد ذلك ببيزنطة اتصالاً كان له صداه في الفنون ، على الرغم من الحروب الطويلة بين هاتين الدولتين، اللتين كانتا تتنازعان السيادة في العالم المتمدين حينئذٍ .

اما في الاسلام فقد أتيح لايران ان تكون في الصف الاول منذ سقطت الدولة الاموية وتولى العباسيون ، فكان الفن الايراني أبدع الطرز في الفنون الاسلامية ، وانتشرت النحف الايرانية من حدود الهند الى جبال البرانس ، ومن تركستان وجنوبي الروسيا شمالاً حتى اليمن وزنجبار جنوباً . وكان المهندسون والفنانون الايرانيون يدعون للعمل في سائر الاقاليم الاسلامية . بل ورحلت جالية منهم الى البندقية في القرن الخامس عشر وعلّمت اهلها الاساليب الايرانية في تكفيت المعادن وتجليد الكتب وصناعة الزجاج ، وانتقل كثير من هذه الاساليب الى سائر الاقطار الغربية على يد البندقة

***

ولم يكن شأن الايرانيين خطيراً في الفنون الفرعية او التطبيقية فحسب . بل ان العمارة الاسلامية ايضاً مدينة لهم بكثير من الظواهر المعمارية التي أصبحت مميزة لها في العصور الوسطى . وليس هذا بمستغرب من شعب كانت له في العصور القديمة مدن كبرسوليس وقصور كالقصور الساسانية استطاعوا فيها ان يبتكروا كثيراً من مشكلات العمارة كالقباب والاسقف والاقبية والاعمدة والعقود

وبهذا يكن من شيء فقد امتازت المآثر الايرانية في العصر الاسلامي بالعقود الايرانية وهي التي يتألف المثلثين مستقيمين ، كما امتازت بكسوتها بألواح القاشاني التي برع أهل ايران في صناعتها . والمشاهد ان المساجد الايرانية عظيمة الشكل بوجهاتها المستطيلة التي يحف بها من الجانبين مأذنة أسطوانية الشكل دقيقة الطرف في أعلاها ولها شرفة تحملها تشبه القنار

وليس موضوع العمارة الايرانية واسع وطريف لا يتسع المجال هنا للتطرق اليه . فحسبنا الآن هذه الصفحات التي استعرضنا فيها استعراضاً سريعاً وموجزاً ، ما وصل اليه شعب ايران من مهارة في الفنون بفضل استعداده الفطري ودأبه على العمل وسعيه الى الكمال

ايران الحديثة

ترجمة زهدي الباقرة

[ليس الغرض من هذا البحث بسط مفاخر الحضارة الايرانية القديمة في العلم والفن والادب والفتوح الحربية ، فلها في جميع أبواب الحضارة والثقافة آيات عجيبة يرى القارىء طرفاً يسيراً منها في باب الفنون في الفصل السابق . ولكننا نريد ان نعنى هنا ، بالنهضة الايرانية الحديثة ، في عهد الزعيم الكبير الشاه رضا بهلوي ، بعد ان كانت الدولة الايرانية قد سقطت في العهد السابق الى دركات التفكك والاضطراب والخضوع للاجانب . فهي تمثل في نهضتها الحديثة أسطورة الفينكس الذي ينبعث حياً جديداً من رماده]

كانت بلاد ايران من نحو قرن من الزمان قاصية راضية ، تنتج ما تحتاج اليه من طعام وتكتفي بما تصنعه أيدي أبنائها من المصنوعات الفنية . ولكنها طمست في أوائل القرن التاسع عشر باستعادة ولاية جورجيا من روسيا فأخفقت وحملت على عقد معاهدة توركمنشاي سنة ١٨٢٨ وهي التي ثبتت فيها قواعد الامتيازات الاجنبية وحتمت عليها القبول برسوم جمركية على الوارد اليها والصادر منها لا تزيد على خمسة في المائة عيناً . وما لبثت الدول الاخرى حتى استندت الى مبدأ « أولى الدول بالمراعاة » في تطبيق القواعد المنطوية في المعاهدة الايرانية الروسية . فكان من اثر ذلك ان زاحمت الواردات الغربية الى ايران ، ما كان يصنع بأيدي ابنائها . وما كان في وسعهم ان يعودوا الى الزراعة ، لان ما تنتجهُ البلاد حينئذٍ كان كافياً بل وفوق الكافي لسكانها . اما التصدير فكان شاقاً لقلة وسائل النقل وبعد المسافات . فلم يبقَ أمام البلاد الا الانصراف عن الصناعات الوطنية الى انتاج المواد الخام التي تحتاج اليها المصانع الاوربية . فأسفر كل ذلك ، في عهد اسرة قاجار الضعيفة ، عن سقوط ايران في مهاوي الانحطاط السياسي والاقتصادي سقوطاً كاد ان يقضي على الطبقة المتوسطة

فلما أهلَّ القرن العشرون كان ميزانها التجاري منحرفاً ضدها بمقدار ٣٠ في المائة وكان كثير من عقاراتها مرهوناً للبنوك الاجنبية . وانحطت زراعتها وصناعتها الوطنية وهبط عدد سكانها . ثم كانت ثورة سنة ١٩٠٦ فأنشىء مجلس نيابي ولكن الفساد السياسي كان متأصلاً فلم يتأصله الانقلاب الى حكم نيابي . وكان كثير من رجال الحكم يرتشون من الاجانب (مجلة الشؤون

الخارجية يناير ١٩٤١ ص٢٩٦ وعليها الاعتماد في معظم هذا الفقرة). فلما عقد الاتفاق الروسي البريطاني سنة ١٩٠٧ كان في طيانه ما يشير الى خنق ايران على نحو ما قسمت بولندة . وأما اعمال الاصلاح المرتقبة فكانت على الغالب لا تتعدى مرحلتها الاولى على نحو ما تم عند ما اخرج مورجان شوستر من البلاد اجابة لمساعي الروسية

فلما اشتبت الحرب العامة سنة ١٩١٤ أنكر على دولة ايران حقوق المحايدين التي ينص عليها القانون الدولي . فلما ارتفع صوت ارثيس ولسن منادياً « بحق تقرير المصير » انبعث رجاء جديد في صدور الايرانيين . ولكن موقعهم الجغرافي واضال المصالح الاوربية المختلفة في تلك البلاد قضى على هذا الرجاء في مهده . وغدت المسألة الاولى بعد الحرب ، اي الدول تفوز بالنفوذ الغالب في تلك البلاد بعد خفضها الى مستوى مستعمرة أتكون روسيا الشيوعية ام بريطانيا الرأسمالية

والجواب الذي خطَّه الشاه رضا بهلوي في سماء بلاده هو هذا — لا روسيا ولا بريطانيا —. والواقع ان التنافس بين الدولتين اسدى خدمة الى قضية الحرية والاستقلال في ايران . ففي ٢٧ يوليو سنة ١٩١٨ اعلنت الحكومة الايرانية الغاء المعاهدات القائمة على غير مبدإ المساواة . وسلَّم البولشفيك باتهاء المعاهدات الروسية الايرانية جميعاً وتخلَّوا عن الامتيازات والديون التي كانت لروسيا في ايران قبل عهدهم . اما بريطانيا فكانت اموالها المثمرة في تلك البلاد اعظم جداً من اموال روسيا فحببت تقدم روسيا الى الهند عن طريق ايران فحملت ايران على توقيع معاهدة لو نفذت لوضعت ايران تحت اشراف لندن . ولكن انقلاباً وقع في ٢١ فبراير سنة ١٩٢١ فتقلَّد جماعة من الوطنيين مقاليد الحكم وتعدَّوا بالمعاهدة البريطانية . وكان عملهم هذا قرعة مدوِّية في بوق الحرية الايرانية . ومنذ ذلك الحين تمكنت حكومة ايران من اتقاء نفوذ روسيا بمقابلته بنفوذ انكلترا وبالعكس . والنجاح في هذه الخطة يعزى الى شخصية رضا خان الذي نشأ من صفوف الجيش الى مقام وزير الحربية فرئيس لوزارته فرئيس موقت للحكومة الموقتة التي اعلنت على اثر اسقاط اسرة قاجار في سنة ١٩٢٥ ثم تخلى العرش في ديسمبر سنة ١٩٢٥ بمشيئة الامة وانشأ اسرة بهلوي الشاهانية في ايران . وقد كان غرض الشاه رضا بهلوي واضحاً تمام الوضوح منذ دخل السيف في خدمة بلاده ، فلما بلغ المقام الذي بؤهله لتسنم العرش اتجه الى هدفين اساسيين اولهما السيادة التامة داخل البلاد والاستقلال التام في الخارج ولكنه ادرك كذلك انه اذا حققت ايران استقلالها المنشود فهي لا تستطيع المحافظة عليه الا اذا اقامت نفسها واخذت بأساليب وزره

ما كاد رضا خان يزيل من طريقه العقبات السياسية الاجنبية حتى اتجه الى تأكيد سلطة الحكومة المركزية على جميع انحاء البلاد ، بعد ان كانت المناطق البعيدة عن العاصمة في حالة فوضى منذ منتصف القرن الماضي . وادرك انه لا يستطيع تحقيق هذا الغرض الا اذا كان

له قوة عسكرية في وضعه الاعتماد على ولائها ، فحلّها محلّ الوحدات العسكرية الموالية التي بقيادة الضباط الاجانب . فأنشأ في آخر سنة ١٩٢١ جيشاً ايرانيًّا قلباً وقالباً ووضعهُ تحت سلطة وزير الحربية ثم تولى بنفسه قيادة هذا الجيش فأخضع به البلاد كلها . فما انقرضت سنة ١٩٢٥ حتى كانت سلطة الحكومة المركزية مبسوطة على كل ايران . وفي تلك السنة قرر المجلس النيابي وجوب تسجيل المواليد والوفيات وعقود الزواج . وسُنَّ قانون بجعل الخدمة العسكرية اجبارية ومدتها سنتان مستثنياً منها خريجي الجامعات

وقد اطردت الزيادة في عدد رجال الجيش الايراني حتى بلغت في السنة الماضية بحسب ملحق دائرة المعارف البريطانية (١٩٣٨) ١٠٠ الف جندي . وجميع ضباط الجيش ايرانيون وتلقوا تلقى علومه العسكرية في فرنسا والمانيا . وهناك قوة عسكرية لصيانة الامن العام يطلق عليها اسم « الامنية » عدد رجالها نحو ١٢ الف جندي وضابط . وقد روى لنا من سافر الى ايران ان رجالها يرتدون ملابس زرقاً فاتحة وقبعات كقبعات الجنود الفرنسيين وهم يسيرون على الطرق ازواجاً يحرسونها . ولايران علاوة على ذلك اسطول بحري صغير في خليج ايران تلقى ضباطهُ تدريبهم البحري في ايطاليا ، وثمة كذلك نواة لسلاح جوّي . يقدَّر عدد طيّاراتها عائة وخمسين طيارة حديثة معظمها على ما يقال من طراز « هوكر » و « ده هافيلاند »

وقوى الدفاع جميعاً خاضعة لاشراف الشاه المباشر ولا سيطرة للمجلس النيابي عليها . والانتظام في الجيش محبّب للشعب ولا سيما الشبان لما يتاح لرجاله من وسائل التعلّم والتثقف ولما لهُ من مقام واحترام احرزهما منذ تولّى الشاه اصلاحهُ وتعزيزهُ وجعلهُ « يدهُ اليمنى » في انحاء البلاد

وتلا اصلاح الجيش وتنظيمهُ الاصلاح القضائي . ففي ١٩٢٧ حلّت وزارة العدلية جميع المحاكم القديمة وشرعت في وضع قوانين جديدة واصدارها . فالقانون المدني ينصُّ على حماية الملك والعقود وينظم الزواج والطلاق ويمنع المتعة . والقانون الجنائي ينصُّ على حماية الحريات الخاصة وان كان الحكم أميل الى النوع الدكتاتوري . والقانون التجاري روعي في وضعه تنظيم الاعمال الاقتصادية والمالية فهو يقضي مثلاً بفرض نظام عام لامساك الدفاتر ويمنح الشركات « شخصية قضائية »

اما التعليم والادارة فتستمد ايران ارشادها فيهما من فرنسا . ذلك بان التركيز الاداري الذي اشتهرت به فرنسا يلائم احوال ايران والثقافة الفرنسية لها مقام خاص عند الايرانيين . وفي كل سنة يعود طوائف من الشبان الايرانيين الذين تلقوا العلم في فرنسا اما على حسابهم الخاص واما على حساب الحكومة ، للاشتغال بتوسيع نظام التعليم . فعدد المدارس تضاعف منذ سنة ١٩٢٢ والعناية متجهة بوجه خاص الى تعليم الحرف والصناعات والى ربط الخدمة العسكرية بالواجبات الوطنية . وتكثر المدارس الليلية لخفض مستوى الامية في البلاد من ناحية ولتدريب موظفي الحكومة

تدريباً يمكنهم من الترقي في مناصب الحكومة من ناحية أخرى . ولا تزال المعاهد العلمية الاجنبية مثل كلية ستوارت التذكارية في اصفهان وكلية المرسلين الاميركيين في طهران تخرج شباناً مزوّدين بما يلزم من الكفاءة والوطنية لخدمة بلادهم

اما المشكلة الاقتصادية المعقدة التي واجهها الشاه رضا بهلوي في إيران ، فكانت اصلاح الحياة الاقتصادية في البلاد بعد ان أصابها الخلل والاضطراب على أثر دخول البضائع الاوربية الرخيصة اليها ومنافستها للصناعات الوطنية

أما الصناعة فلا تزال في مهدها . فأكبر مصنع في البلاد للنسج لا يزيد عماله على ٥٠٠ عامل . وصناعة السجاد التي يصدّر ٩٥ في المائة من منتجاتها أصيبت اصابة شديدة في اثناء الازمة الاقتصادية العالمية ورفع الرسوم الجمركية في مختلف البلدان ولا سيّما في الولايات المتحدة الاميركية ، التي كانت تبتاع نصف ما تصدره إيران من السجاد . والزراعة لا تزال تعمل ٨٠ في المائة من اهل البلاد بما فيهم القبائل الرحّالة . وفي البلاد مصادر معدنية ثمينة ولكنها لم تستغلّ إلاّ قليلاً — اذا استثنينا النفط — وأهمها الحديد والفحم والنحاس والرصاص والمنغنيس والرخام والنيكل والكوبلت

وقد بلغ ما استخرجتهُ « شركة الانجلو برشان » من النفط من منطقة امتيازها في سنة ١٩٣٧ تسعة ملايين ونصف مليون من الاطنان

ثم هناك زراعة الخشخاش الذي يستخرج منهُ الافيون . فمن نحو اربعين سنة اضطرت ايران ان تعنى بزرع نبات ينتج محصولاً يسهل نقلهُ فأقبلت على زراعة الخشخاش حتى بلغ ٧٫٥ في المائة من الدخل العام و١٦ في المائة من الصادرات في سنة ١٩٢٦ ، من هذه الزراعة

ولما كانت عصبة الامم معنيّة بالسيطرة على تجارة الافيون في مصادره ، أوفدت في سنة ١٩٢٧ لجنة الى إيران لدراسة الموضوع فيها . فقالت اللجنة في تقريرها ان محصول الخشخاش محصول يلائم ايران كلّ الملاءمة . فهو يزرع في الخريف ولذلك يروى بغير عناء عندما يكثر الماء . وقيمة ما يجنى منهُ من الفدّان الواحد يزيد اربعة اضعاف على ما يجنى من الحنطة ، فلذلك يسهل على أصحابه ان يتحملوا نفقات النقل العالية ، ثم انهُ يصدّر ولذلك يمكّن البلاد من استيفاء ثمنهِ في توفية ثمن ما تستورده من الخارج . ثم اقترحت اللجنة ان توجه الحكومة الايرانية عنايتها الى شق الطرق وخزن المياه وتحسين الاساليب الزراعية وانعاش الصناعة الكاسدة ، وان يتاح للحكومة الايرانية ثلاث سنوات للبحث عما يصح ان يحلّ محلّ الخشخاش كمحصول زراعي ثم تشرع في نقص المساحة المزروعة منهُ ١٠ في المائة كل سنة بعد ذلك . فأنشأت الحكومة الايرانية « احتكار الافيون الحكومي » وجعلت زراعة الخشخاش خاضعة لرخص خاصة وضرائب خاصة وحظرت زراعتهُ في أراض جديدة ووضعت برنامجاً قضت بواسطته على منع زراعة الخشخاش في

مناطق معينة. ومع ان الحكومة اعفت من الضرائب، تلك الاراضي المحولة من زراعة الخشخاش الى زراعة محاصلات اخرى، لم يكن ثمة بدٌّ من ان يكون هذا التحويل بطيئاً . فليس بالسهل ان يتحول الفلاح من زراعة نبات معين ألفهُ وألف اساليب العناية به الى زراعة نبات جديد ، دع عنك الاستياق من الملاءمة المفروضة بين الارض والنبات الجديد . وصادرات الافيون الايرانية آخذة في النقص المطرد حتى ان الجمعية العمومية لعصبة الامم وضعت قراراً خاصاً عبرت فيه عن تقديرها لما ابدتهُ الحكومة الايرانية من التعاون وحسن النية في هذا الصدد

والحالة من الناحية المالية خيرٌ منها من الناحية الاقتصادية . فقواعد الاصلاح المالي الذي بدأه الخبير الاميركي الدكتور ملسبو Millspaugh في سنة ١٩٢٢ لاتزال هي هي قواعد السياسة المالية المتبعة الآن وأهمها السعي سعياً حازماً لتوفية النفقات من الدخل العادي . ويؤخذ من احصاءات سنة ١٩٣٤ ان ٢٠ر٤ في المائة من الميزانية جاء من الرسوم الجمركية و٣٢ر٤ في المائة من شركات الاحتكار (السكر والشاي وعيدان الثقاب والتبغ والافيون والقطن وغيرها) و ١٧ر٦ في المائة من الامتيازات الممنوحة للاجانب . اما النفقات فمنها ٣١ر٤ في المائة للجيش والدفاع الوطني و ٥٧ر٢ في المائة للادارة. وقد بلغت الميزانية في سنة ١٩٣٧ مبلغ ١٥ر٦٢٥٠٠٠ جنيه للدخل و ١٥ر٦٠٠٠٠٠ جنيه للنفقات . ويشهد جميع الكتاب الذين زاروا ايران حديثاً ان موازنة الميزانية من ابواب الدخل لمواجهة النفقات التي تقتضيها مشروعات الحكومة المتعددة، عمل عظيم حقاً

واهمُّ ما تحتاج اليهِ البلاد من الناحية الاقتصادية الآن تمهيد طرق المواصلات . والحكومة الحالية جادة في هذا السبيل وهي تنفق على مشروعاتها من مال ايران نفسها بغير ان تلجأ الى عقد قروض اجنبية . ومن اهم هذه الطرق انشاء سكة حديد طولها ١٥٠٠ كيلو متر من خليج ايران الى بحر قزوين طرفاه بندر غازي على بحر قزوين وخور موسى على خليج ايران . والظاهر ان الاعتبارات العسكرية والسياسية مقدمة على الاقتصادية في عد هذه السكة ، ولذلك تقتضي سنوات قبل ان تصبح هذه السكة مصدراً للدخل ، ولكنها ستكون ذات شأن عظيم في حفظ الامن العام وتعزيز وسائل الدفاع

ولعلَّ الغاء الامتيازات الاجنبية أشهر مآثر الشاه رضا بهلوي في اصلاح ايران وتعزيز سيادتها واستقلالها . ففي سنة ١٩٢١ كانت الدول الاجنبية في ايران فريقين : فريقاً يتمتع أبناؤه بالامتيازات وآخر خاضع للمحاكم الايرانية كروسيا وتركيا وافغانستان ودول أوربة الجديدة . وكانت دول الفريق الثاني برمتها بهذا التمييز . ولذلك جعل الروسيون يسعون الى الفوز بالعودة الى نطاق الامتيازات لان ذلك يسهّل عليهم بث دعايتهم في ايران ومنها الى جيرانها الهند .

أما بريطانيا فكانت تؤثر الخضوع للمحاكم الايرانية على التسليم بما يمكن روسيا من بث دعايتها على حدود الهند. فلم تتم عقبة ما من ناحيتها، دون رغبة الحكومة الايرانية في الغاء الامتيازات

وقد الغيت الامتيازات فعلاً في ١٠ مايو سنة ١٩٢٨. فكان ذلك فوزاً سياسياً كبيراً لحكومة طهران واحتفل بذلك اليوم احتفالاً قومياً. وعقدت بعد ذلك معاهدات مع الدول المختلفة أعترفت فيها جميعاً بمساواة ايران لها. ولكن نص في معظم المعاهدات الجديدة على استثناء الاجانب المقيمين في ايران من مصادرة أملاكهم وحملهم بالقوة على التنازل للدولة او الاشتراك في قروضها وما أشبه. وبالغاء الامتيازات استعادت ايران حريتها فيما يتعلق بفرض الرسوم الجركية وللحال شرعت في المفاوضات لعقد معاهدات تجارية جديدة. وانتهت جميع هذه المساعي في ٢٥ فبراير سنة ١٩٣١ الى سن قانون خاص « باحتكار التجارة الخارجية » فرضت الحكومة بمقتضاه الحصص على الوارد اليها لكي تتمكن من تصحيح الميزان التجاري بين الصادر والوارد

ومما يتبع الاصلاح الاقتصادي والمالي، الاصلاح الاجتماعي، من حيث بث الروح الوطنية لتكون الرابطة القوية بين ابناء ايران وتحرير النساء والاستغناء عن الموظفين والخبراء الاجانب وما يتعلق بالملابس وغيرها

هذه الاعمال مكنت الشاه رضا بهلوي من تعزيز سلطة الحكومة المركزية وكسر شوكة السيطرة الاجنبية على مرافق البلاد. ومع ما أحرزته الحكومة الايرانية من انتصارات باهرة في هذه الميادين لا يزال يتعين عليها ان تتقي الضغط الروسي عليها بمقابلته بالضغط البريطاني، وان تتقي الضغط البريطاني بمقابلته بالضغط الروسي

وجميع العوامل السياسية الخارجية، سواء أكانت أدولية أم خاصة بها، تؤاتيها على هذا

فقد كانت خطة روسيا السوفيتية في بادىء الامر ان تحارب الرأسمالية في الشرق، باضعاف الامبريالزم الاوربي في الشرق. ومع ان شيوعي روسيا يزعمون انهم راغبون عن التوسع الامبراطوري ويميلون الى الشعوب المستعمرة أو التي في حكم المستعمرة، لا يمكننا أن نعزو سلوكهم في ايران اذ قبلوا الغاء الامتيازات والديون القيصرية السابقة، الى روح الايثار فقط، بل ان جانباً منه لا بدّ ان يعزى الى رغبتهم في خضد شوكة بريطانيا في الشرق الاوسط. ثم انهم كانوا يرغبون في ان يجتذبوا اليهم جميع الشعوب المجاورة التي بينها وبين بعض القوميات الداخلة في اتحاد الجمهوريات السوفيتية صلة قرابة. وهذا هداهم الى انشاء كتلة من الدول في الشرق الاوسط اذ عقدوا معاهدات مع تركيا وايران وأفغانستان في سنة ١٩٢١

ولكن الروسيين خسروا في حلبة الاعمال الاقتصادية ما كسبوه في ميدان السياسة. ذلك بأن اعمال قسم احتكار التجارة الخارجية الروسية « أثارت مقاومة تجار ايران وحاجاجيهم وانهالت

على الحكومة الايرانية في سنة ١٩٣٤ مطالب التجار بأن تتوقف الحكومة عن معاملة روسيا او ان تجعل «قسم احتكار التجارة الخارجية الايرانية» شديداً كصنوه الروسي

ثم جاء النزاع بين ستالين وتروتسكي فغاز ستالين، وتغلب القول بتطبيق الشيوعية في روسيا أولاً على الدعوة الى الثورة العالمية. ولذلك جعلت حكومة روسيا تكفّ عن مساعيها السياسية في البلدان المجاورة لها وقد انتهى هذا الاتجاه الروسي القائم على «المعيشة بسلام والتعاون مع الدول الرأسمالية» الى انتظام روسيا في عصبة الامم في سنة ١٩٣٤

ولكن على الرغم من ذلك لا تزال عناية روسيا بالشرق عظيمة، بل لعلّها اعظم الآن مما كانت. ومتتبعو تقدم روسيا الصناعي يؤكدون ان نصف ما انفقتهُ الحكومة الروسية في مشروع السنوات الخمس الثاني أنفق في البلدان الواقعة الى الشرق من جبال الاورال. فانشاء المصانع الكبيرة في تلك المنطقة لا بدّ ان يفضي عاجلاً أم آجلاً الى البحث عن أسواق لمنتجاتها في البلدان المجاورة. إلاّ ان روسيا موجهة الآن معظم عنايتها الى الغرب والشرق الاقصى. فاهتمامها بالشرق الاوسط قليل، وفي هذا فرصة متاحة لايران لتعزّز مكانتها وتؤيد استقلالها

أما بريطانيا العظمى فقد شقّت طريقاً جديداً في علاقاتها بايران بعد ان سوّي الخلاف على مشكلة شركة النفط (الانجلو برشان) في سنة ١٩٣٣. ويمتدُّ صكُّ الامتياز الجديد الذي وقع في ابريل من سنة ١٩٣٣ ستين سنة وأقل نصيب تنالهُ الحكومة الايرانية من أرباح الشركة هو ٧٥٠ الف جنيه في السنة — وقد بلغ في السنة الماضية نحو ٣ ملايين من الجنيهات — يضاف اليها مبالغ أخرى مثل مبلغ ١٠ آلاف جنيه لتعليم الايرانيين شؤون صناعة النفط. ثم ان السر جون كادمن المدير المقيم في طهران قام باسم الشركة بأعمال من شأنها أن توثق عُرى التعاون بين الشركة وحكومة طهران. وقد عنيت الشركة باقامة مصنع لتكرير البترول في كرمنشاه يدفع اليهِ النفط بالضغط من حقل خانقين الواقع على حدود ايران العراقية. وقد كان نفط باكو الروسي محتكراً السوق في شمال ايران لغلاء أجور النقل من عبادان على خليج ايران الى الشمال. فاقامة مصنع كرمنشاه يمكن الشركة البريطانية من منافسة النفط الروسي في تلك المنطقة. واذا صرفنا النظر عن النزاع بين بريطانيا وايران على السيادة على جزر البحرين، كان في وسعنا أن نقول ان علاقات الحكومتين متسمة بسمة التفاهم والتعاون. وعلاوة على ذلك فبريطانيا تؤيد توثيق عُرى التعاون بين دول الشرق الاوسط المتمثلة في ميثاق سعد آباد (طهران) الذي عقد في السنة الماضية بين تركيا وايران والعراق وافغانستان

ولعلّ اكبر نصر سياسيّ احرزتهُ ايران الحديثة هو تحويل تركيا عدوتها القديمة الى صديق حميم. فقد كانت العلاقات بينهما على اثر انتهاء الحرب الكبرى مشوبة بالجفاء الشديد فلم تعقد

بينها معاهدة صداقة حتى سنة ١٩٢٦ ثم تلاها اتفاق على التعاون الاقتصادي في سنة ١٩٢٨ ولما عينت الحدود في سنة ١٩٢٩ بين الدولتين اخذ اقطاب البلادين يتبادلون الزيارات الواحد تلو الآخر واشهرها زيارة الشاه لانقره واستانبول في شهر يونيو من سنة ١٩٣٤

وفي سبتمبر من تلك السنة ، نزلت ايران عن ترشيح نفسها للمقعد الخالي في مجلس العصبة لكي لا تنافس تركيا عليه فردّت تركيا التحية بمثلها في سبتمبر من سنة ١٩٣٧

وليس بين ايران وافغانستان ما يثير مشكلة ما . فقد كان الافغانيون جزءاً من الامبراطورية الفارسية ولا يزالون يتكلمون اللغة الفارسية . نعم ان مسألة الحدود بين الدولتين احدثت شيئاً من الجفاء في سنة ١٩٢١ ولكن الدولتين قبلتا تحكيم تركيا فعينت لجنة لتخطيط الحدود وذهبت الى المنطقة الخاصة في يونيو سنة ١٩٣٤ وتمكنت من حلّ الخلاف وعلى اثر ذلك دخل افغانستان في ميثاق سعد اباد (طهران) سنة ١٩٣٧

أما ايران والعراق فقد كان ينتهما فتور ناشأ عن توقف حكومة طهران عن الاعتراف بالدولة العراقية الجديدة واشتراطهم لذلك منح الرعايا الايرانيين النازلين في العراق حق التمتع بالامتيازات الاجنبية واباء الحكومة العراقية عليهم ذلك . على ان مسألة الاعتراف قد حلت بعد ذلك في سنة ١٩٣٠ عقب زيارة اخلك فيصل لطهران في شهر ابريل من تلك السنة فقد اعترفت الحكومة الايرانية بالدولة العراقية وعقدت معها اتفاقاً وقتيًّا وتبادلت معها الممثلين السياسيين

ولما جاء دور البحث في تنظيم العلاقات السياسية والاقتصادية اثار الايرانيون مسألة الحدود مطالبين بتعديل التحديد معللين انهم لا يعترفون باتفاق الحدود الذي عقد في سنة ١٩٢٣ بين ايران والدولة العثمانية بحجة ان برلمانهم لم يقره ، وأصرّ العراقيون على رفض طلب التعديل لان الاتفاق قديم ولانهُ نفذ فعلاً

ولما تمسك الايرانيون بموقفهم وأبوا التساهل مع العراقيين رفع وزير الخارجية العراقية في سنة ١٩٣٣ الامر الى عصبة الامم طالباً منها التوسط لازالة الخلاف وحمل ايران على الاعتراف بمورد ها فانتدبت العصبة السفير الوزي مندوب ايطاليا لدرس الخلاف ثم جاء التقرير في سنة ١٩٣٥ فحبذا بالاتفاق القضية على ان يحل بينهما اتفاق مباشر وقد تم ذلك فعلا في شهر يوليو سنة ١٩٣٧ بعقد اتفاقات بينهما حلت بموجبها جميع المشكلات ونظمت العلاقات السياسية والاقتصادية والقضائية بين البلادين على اساس ثابت . ثم دخل الفريقان ما في الميثاق الشرقي الذي عقد في سعد اباد (طهران) عقب ذلك

واستقبلت علاقات الفريقين بعد هذا الاتفاق دوراً جديداً من الود والاستقرار وهي على افضل ما يرام في الوقت الحاضر